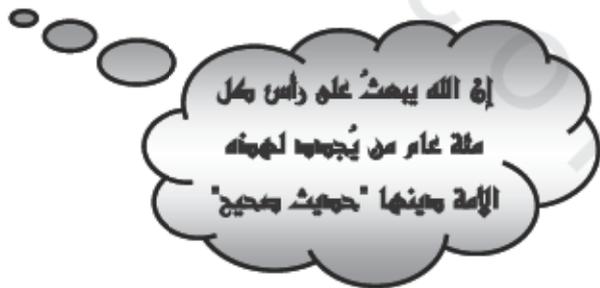


رجال حول القائد

تسالت المجتمعات بلسان الحال ، أو المقال ، على أن المحرك لها ، والمالك لزام أمرها ، في كثير من أمور دنياها ، والموجه لها ، شخص واحد ، يُسمى القائد أو المسؤول .
تدور المجتمعات حيث دار هذا القائد ، وتتنجس المؤسسات حيث اتجه ، وإن بدا الأمر على غير هذا ، ومن حاول إنكار هذه الحقيقة ، فإن حجته داحضة ، والمشاهد لتصريف الأمور ، خير شاهد .

لقد ألمح النبي ﷺ إلى هذا المعنى ، حين قال : إن الله يبعث على رأس كل مئة عام ، من يجدد لهذه الأمة ، دينها^(١) ، فقد جعل تجديد الدين ، وتجويد أحوال الأمة ، منوطاً بشخص واحد ، في خطوته الأولى ، فيما يبدو ثم يأتي دور الأتباع ، والأعوان .



(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب ما ذكر في قرن المئة ، حديث رقم ٤٢٩١

ذكر أهل السير أن الناس في عهد عبد الملك بن مروان الأموي ت (٨٦هـ) كان يسأل بعضهم بعضاً كم جارية اشترت؟ وكم ضيعة ملكت؟ ثم صار الناس يسأل بعضهم بعضاً في عهد عمر بن عبد العزيز ت (١٠١هـ) كم يوماً صمت؟ وكم ليلة قمت؟ وكم غزوة غزوت؟

لقد كان هذا المعنى حاضراً في أذهان العظماء منهم نابليون، حين قال: إن جيشاً من الأرناب، يقوده أسد، أفضل من جيش من الأسود، يقوده أرناب، مع الاحتفاظ بحق من يقول أيضاً وما عساه أن يصنع الأسد، بجيش من أرناب.

حين تتوافر لمؤسسة ما، عوامل التغيير، وتتعدد لديها الإمكانيات اللازمة للتحسين، والتجويد، فإنها كلها لا تساوي شيئاً، ما لم يكن هناك مسؤول قائد قادر على توظيف هذه الإمكانيات، وتوجيه تلكم القدرات.

إن الإمكانيات مهما عظمت، وتنوعت، فإنها ستبقى أموالاً في خزائنها، وشخصاً في مكاتبها، وأجباراً على أوراقها، وأفكاراً في رؤوس أصحابها، ما لم يقبض الله لها قائداً يجعل منها مجتمعة بناءً شامخاً، وجودةً شاملةً.



لقد أدرك المتنبي الحكيم، هذه الحقيقة، فصاغها شعراً:

وما تنفع الخيل الكرام، ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

وشهد الشهادة نفسها، الطفرائي حين قال:

وعادة النصل أن يزهي بجوهره وليس يعمل إلا في يدي بطل

سمع أحد السلاطين، بسيف بلغت شهرته الآفاق، فأرسل في طلبه، فاستجاب صاحبه، وأرسله إليه، فلما نظر فيه السلطان، وخبره، أعاده إلى صاحبه، وكتب إليه لم نر في سيفك ما يميزه، وليس فيه ما يستحق معه هذه الشهرة. فرد عليه صاحب السيف، لقد أرسلت لك يا سيدي السيف، ولم أرسل لك اليد، التي تضرب به، فبهت السلطان.

إن هذا الدور الرائد للقائد، لا يعني بحال أنه قادر على أن ينجز المهام العظام، ويتخذ القرارات، الجسام وحده، ولا أحسب أن أحداً يتوهم هذا.

إن من أبرز مهام القائد الرائد، أن يلفت انتباه الناس إلى القضايا المهمة، وأن يبين لهم إمكانية حصول التغيير، مثلاً أو إمكانية تحقق الجودة، وأن يقودهم إلى حيث هي. أما التغيير، والتجويد فهو عمل جماعي، ومسؤولية الأفراد جميعهم.



إن القائد الذي يسعى إلى تحريك الجهود وتوجيه الإمكانيات بالاتجاه الذي يريد، لا بد له من الاقتراب من الناس ليخبر قدراتهم، ويستعير طاقاتهم، فالقائد ذهن يتأمل، وقلب يتجول، وهو بعيد مسافة العقل، من حيث الطموح، والتخطيط للمستقبل، والنظر البعيد.

لكن يحسن الاعتراف، كما قال أحد الحكماء، أنه يأتي وقت في حياة كل إنسان، تخدم فيه ناره الداخلية، ثم تتقدم مرة أخرى، عندما يلتقي بإنسان آخر، يجب علينا أن نشكر أولئك الأشخاص، الذين يوقدون شعلة أرواحنا. وهذا يعزز مفهوم أن القائد لا يصنع التاريخ، وحده.

حين يمارس القائد مهنة التحليق، وحرقة التجويد، فإنه بحاجة ماسة إلى أن يجمع حوله نخبة ترافقه، وهو يشد الرحال، ويقطع المسافات الطوال نحو البناء، والتجويد، إذ لا يمكن مهما أوتي، أن يقطع هذه المسافات بإمكاناته، أو أن يحقق هذه الطموحات منفرداً.

إن الأنبياء الكرام، المؤيدين بالوحي، لم يستغنوا عن رجالٍ حولهم، فكان للمسيح، عليه السلام، حواريون، وكان حول النبي محمد ﷺ أصحاب كرام، قرن الله تعالى ذكرهم بذكره، عليه السلام، تقديراً لدورهم، وتنويهاً بشأنهم، وإعلاءً لذكرهم قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُحْمَدَ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ سورة الفتح (الآية: ٢٩).



بيّن النبي ﷺ مدى حاجة القائد، الذي يسعى إلى كتابة فصل في كتاب التاريخ، إلى رجالٍ حوله، فهذا الصحابي أبو بصير عتبة بن أسيد الذي غادر مكة، بُعيد صلح الحديبية، وتعدّر عليه الانضمام إلى جماعة المسلمين، في المدينة في ضوء اتفاقية صلح الحديبية^(٢).

آثر هذا الصحابي الكريم أن يستقر في بلدة العيص، القريبة من المدينة، فقال عنه النبي ﷺ (ويل أمه مُسعر حربٍ لو كان معه أحد)^(٣).

إن في قول النبي ﷺ هذا ثناءً، على قدرات أبي بصير، وتنبهها إلى حاجته الماسة إلى رجال، وتلميحاتٍ له، بالبحث عنهم، فإنه وحده لن يستطيع أن يفعل شيئاً، ولقد وصلتته الرسالة، وعمل بها، رضي الله عنه فنفخ الله به وممن معه كثيراً.

ليس يخفى، أن التجويد عملية متعددة الأطراف، تستدعي تنوع الخبرات، وتضافر الإمكانيات، وحيث إنها لا تجتمع في شخص واحد، مهما أوتي، كان لابد من اجتماع العدد الذي تتوافر فيه الصفات جميعها، اللازمة لعملية البناء، والتجويد.



(٢) علي محمد الصلابي، انظر السيرة النبوية، ج ٢، ص ٤٧٣، ط دار الإيمان، مصر ط ١

(٣) رواه البخاري في صحيحه، باب المناقب، حديث ٢٧٣١

يُعد حسن اختيار القائد لمن حوله، نقطة الارتكاز، وحجر الزاوية، ورأس الأمر، وعموده، إذا وفق صاحب القرار إلى حسن الاختيار، تحقق له ما أراد، وإن أساء الاختيار، كان كالمسافر في الصحراء، من غير ماء، ولا زاد.

أدرك أحد القادة، وهو اللورد بايرون أهمية حسن الاختيار، وتدابيراته، فقال نحن في الحقيقة، لا نقود رجالنا فالواقع أننا نتبعهم، وكأنني به يقصد أن القائد يضطر في مواقف كثيرة، إلى أن يتكيف مع توجهات الرجال، المحيطين به، وهو ما يُملي عليه أن يكون حذراً في اختيارهم.

لو قُدِّر أن مسؤولاً اختار فريقاً للعمل معه، وكان أعضاء هذا الفريق لا يحبذون اجتماعات المساء، خلافاً لرغبة هذا المسؤول، فإن الأعضاء بأساليبهم المتعددة، سيدفعونه إلى النزول عند رغبتهم، وإن بدأ في ظاهر الأمر، أنه هو الذي اتخذ قرار تحويل الاجتماعات، من المساء إلى الصباح.

حين يحسن المسؤول الاختيار، فقد تهيأت له أسباب النجاح، وحاز ذخيرة لا مثيل لها، وأحسن الشاعر:

لمعرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الثقات الذخائر



إن الأعوان الكرام الأقوياء، سمعُ القائدُ وبصره، وقد يُعذرُ سيتفسون حين قال إن الأخ الضعيف أسوأ خلق الله، وهذا الشعور، جعل بعض الحكماء، يفضل أن يكون فرداً في جماعة الأقوياء، على أن يكون قائداً على جماعة ضعفاء.

يحضرنني في هذا المقام، قول عمر، رضي الله عنه حين بعث مدداً من الرجال إلى عمرو بن العاص، رضي الله عنه، لما أبطأ عليه فتح مصر.

كان مما قاله عمر رضي الله عنه له: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألفٍ منهم رجلٌ يُعدُّ بألف رجل، وهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد، رضي الله عنهم^(٤).

إنها قمة التجويد، أن يصنع النبي ﷺ من أصحابه أشخاصاً، الواحد منهم بألف رجل، فليفتش المسؤول بالمناقش عن أعوان له، يُذكرونه بهؤلاء الكرام، فإنهم لا يطرُقون الأبواب، ولا يتطاولون على رؤوس أصابعهم، حتى يراهم المسؤول.

إن هذا المسلك متجه، وله مسوغاته، ذلك أن الكريم إذا عثر، لا يأخذ بيده إلا الكرام، جاء في كتاب كليله ودمته: إن الفيل إذا وحل بالطين، لا تخرجه إلا الفيلة، ولن تخرجه الأرناب، وإن كثرت حوله.



(٤) انظر تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١٠٧، الإمام الطبري

يُشكر للمسؤول أن يبحث عن أصحاب الشهادات، وذوي الخبرات، ليتخذ منهم أعواناً، ومساعدين، لكن التعويل عليها، وحدها لا يسعف، فثمة حماس، وإخلاص، وإيمان بالعمل، وتفاني من أجله، وقدرة على التوظيف، والاستثمار، فإن عُدمت كلها، أو بعضها، فما عساها أن تفعل الشهادات، والخبرات، والله در المتنبى :

إن السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع

وقد تنبه أحد الحكماء إلى هذا الأمر، حين قال : يجب أن لا نحكم على الناس، بمؤهلاتهم، ولكن بمدى باستخدامهم لهذه المؤهلات، وأحسب أنها مقولة غاية في الجمال.

قال زيد بن ثابت، رضي الله عنه، قال لي رسول الله ﷺ أتُحسِن السريانية، قلت لا، قال فتعلمها قال زيد فتعلمتها، في سبعة عشر يوماً^(٥)، نعم زيد، وأمثاله، ومن سار على نهجهم، من يصنعُ بهم القادةُ التاريخَ، فهم الحماس، والإخلاص، والاجتهاد، يكرهون التواني ويحسبون الوقت بالتواني.

إِنَّمَا وَجَلَّ الْفِيلُ بِالطَّيْرِ،
لَا تُخْرِجُهُ إِلَّا فَيْلَةٌ مِثْلَهُ
"بَيْهَبًا"

(٥) مسند الأمام أحمد، مسند زيد بن ثابت

يكثر الحديث عن أهمية التوافق، والانسجام بين المسؤول ومساعديه، وتلكم قضية لا يختلف فيها اثنان، ولا ينتطح فيها عنزان، لكن لا يعني ولا ينبغي أن يفضى هذا إلى أن يصبح هؤلاء، صدى للمسؤول، لا يحسنون إلا التأمين، وكأن هذا المسؤول يحاور نفسه، ويسمعها، فلم المناصب إذن والمكاتب، والرواتب؟ إن المسؤول الذي اخذ على عاتقه أن يحقق الجودة الشاملة، والتميز في مؤسسته، ابتداءً من تحليل صادق للواقع، وانطلاقاً من تخطيط، ناطق للمستقبل، من خلال توظيف أمثل للإمكانات المتاحة، وأبرزها الرجال المحيطون به، إن هذا المسؤول لا يصلح له بحال، أن يحيط به أعوان الباذنجان. وما أدراك، ما أعوان الباذنجان؟ حدث في غابر الزمان، أن أكل السلطان شيئاً من الباذنجان، فأصيب بالغثيان، فجمع من حوله من الأعوان، وأبدي لهم امتعاضه من الباذنجان، فتبارى الأعوان في ذمه، فكان مما قالوا يا أيها السلطان، حسبك أنه أسود، يجاهر بشره وسيوئه، واقترحوا إصدار مرسوم، يُحرّم زراعته. ويُحرّم أكله. ثم إن السلطان طلع عليهم بعد أيام وقد بدت عليه علامات السرور، والانسراح، وقال لهم أكلت البارحة الباذنجان، فشعرت براحة تامة، وقد غيرت رأبي وبدا لي أنها نبتة طيبة ومفيدة، فقالوا يا أيها السلطان، هذه النبتة المباركة، قلبها أبيض، ولا تضر إطلاقاً قشرتها السوداء، فإنها رقيقة تخفي تحتها الصفاء، والنقاء، والبياض، ونرى أن يأمر السلطان بزراعتها في كل بيت، ويأمر بأكلها، كل يوم.

إن السلاح جميع الناس تحمله
وليس بكل نواته المخلب
السبح "المتنبه"

من بشائر التوفيق، ومظاهر النجاح، أن يرى المسؤول نخبةً، ناصحةً، ناضجةً، تحيط به، يتخفف بهم من أحماله، ويجوّد بمعونتهم من أعماله. يتمثل كل واحد منهم، قول عمر أبو ريشة:

تقضي البطولة أن نمد جسومنا جسراً فقل لرفاقنا أن يعبروا

لله دره، ما أسمى هذا المعنى، وما أجمله من مبنى مؤثر، وما أعظم رواد الأمة، حين يجعلون منه شعاراً، ويتخذونه دثاراً. إذا اجتمع لهذا المسؤول، حُسن الاختيار مع براعة الاستثمار، لما بين يديه من خبرات، وإمكانات، وقدرات، فإن هذا شاهد، على سلامة المسار، ومؤشر على الاقتراب من قطف الثمار. تبدو في علاقة المسؤول بمن حوله شواخص، يحسن المرور بها مرور الكرام، لأنها تسهم في بيان الطريق، الموصل إلى سدة النجاح، والجودة. تُعد الثقة المتبادلة أولى هذه الشواخص، حتى قال أهل الخبرة، إنها هي التي تنجز الأعمال العظيمة، والمراد بها الثقة التامة، فقد قال بعض الحكماء، ليس هناك ربع ثقة، أو نصف ثقة، إما أن تكون ثقة كاملة، أو لا تكون، مع الاحتياط من أن الثقة بكل أحد عجز، كما قال السلف.



بيد أن هذه الثقة التي نتحدث عنها، ونرغب بوجودها، لا بد لها، حتى تؤتي ثمارها أن توضع في نصابها، ولا تختلط بغيرها من المفاهيم.

إن الحب والتقدير والاحترام والصدقة أشياء جميلة، ولكنها قطعاً غير الثقة، ولا تسد مسدها بحال، وعدم التفريق بينها يسيء إلى الجودة.

لقد كان هذا المعنى حاضراً، لدى السلف الصالح، وهم يسعون إلى بيان الآثار المروية عن النبي ﷺ جيدها، من سقيمها، فهذا هو الإمام مالك، يقول: إن من أصحابنا من نستسقي به الغمام، ولا نأخذ عنه حديثاً من أحاديث النبي ﷺ.

يحسن بيان معالم الثقة التي نريد حتى لا تصبح غطاءً لامعاً لبعض السلبيات، التي قد تصدر عن المسؤول، عن قصد، أو دون قصد. مثل عدم تحميله المسؤولية، أو عدم قدرته على متابعة الأعمال فيعمد بحجة محاربة المركزية، وإتاحة الفرصة للآخرين، وبسبب التهيب من اتخاذ القرار، إلى منح الثقة دونما روية.

إن نتائج هذه التصرفات لا تُحمد عقبائها، فإنه كثيراً ما تنتهي الثقة الزائدة، إلى كراهية زائدة، كما قال أحد الحكماء، وهذا يعني أن الحذر هو الذي يحمي الثقة من الانهيار.

لا ينبغي للحذر على أهميته، أن يقود إلى الشك، أو زعزعة مكانة الثقة، فقد قيل إن من يشك كثيراً بمن حوله، قد تأتي عليه ساعة، لا يرى أحداً منهم حوله، ولا يتوقع منهم أن يمنحوه ثقتهم، مقابل شكهم فيهم.

تقنيو البطولة أن نجد جسمنا
جسراً نقل أرواقتنا أن يهروا
"أبو ريشة"

يُعدُّ حُسن الاستماع، الشاخص الثاني، فإنه بوابة الانتفاع للأطراف جميعها، ذلك أن سوء الإصغاء يولِّد الأخطاء، كما قال بعض السلف، عن أحد أعوانه: أقول له زيدا، فيسمعي عمراً، فيكتبه سعداً، فيقرأه بكراً. وأنى يكون التفاهم، والانتفاع بهذا الصنف من الناس.

يُبرهن هذا الذي تقدم، على أنه لا يكفي للمسؤول أن ينتقي كلماته، فلا بد كذلك أن ينتقي مستمعيه، حتى لا يجد نفسه قد حمل متاعه، كما قيل، على حمار أعرج. يلزم المساعدين حُسن الاستماع، لأنه أقصر الطرق إلى الانتفاع، على أن لا يجعل منه بعضهم حرفةً، وغايةً، يبعث من خلاله برسائل، تعود عليه بالنفع، فما وضع في مكانه هذا ليستمع فقط.

وقد تندر بعض السلف، على من يلزم الصمت، حين تدعو الحاجة للحديث، فقال هو شخص بين النائم، والأخرس، وأحسبه كذلك. يؤثِّر هذا المسلك على المسؤول، حتى إنه ليتعذر عليه أن يمارس هذه الفضيلة، وتلك منقصة، لا تليق به، فإن المسؤول المثالي هو الذي يُجيد الاستماع، أكثر ممَّا يُجيد الحديث، كما أنه من المناصحة، أن يُتيح له المحيطون به ممارسة فضيلة حُسن الاستماع. بأن يمارسوا هم فضيلة الكلام، في الوقت المناسب دونما تهيب أو تردد. الأمر كما قال فيكتور هيجو، إن أعظم الأفكار، والمبادرات التي تطرح، هي تلك التي حان وقتها، ودعت الحاجة إليها.



يُجمع أهل الرأي أن للمسؤول دوراً، بارزاً في نشر فضيلة الحديث المنضبط بين مساعديه، فإذا عُرف عنه أنه لا يضيق صدره بالرأي المخالف، وأنه يستحضر الحكمة القائلة، يوجد لألف رأس، ألف فكرة، كما قال هوراس مكن هذا المسلك المحيطين به، من المبادرة إلى طرح ما لديهم من أفكار، ومقترحات، وعندها يضع الجميع أقدامهم، على طريق الجودة.

يحسن بالمسؤول أن يوطن نفسه، على أنه قد يسمع، ما لا يسره، ممن هم حوله، وإلا فلم يجمعهم حوله، أصلاً، كما يحسن به أن يتقبل احتمال أن تأتي النتائج على خلاف ما يُريد، لأن للأخريين آراءهم.

إن البديل عن هذه المنهجية المثمرة، هو أن يستأثر المسؤول بطرح ما لديه من رؤى، وأفكار، ويقتصر دور المساعدين، على التأمين، ويغيب عنهم هدايات قول رب العالمين ﴿قَالَتْ إِحَدِهْمَا يَكْتَابِي أَسْتَجِرُّهُ لِيَا خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرَّتِ الْقَوَى الْأَمِينُ ﴿٦٦﴾﴾ سورة القصص (الآية: ٢٦).

ثالث هذه الشواخص، أن ينهض المسؤول بمن حوله، فيُعلي من شأنهم، ويذكر إنجازاتهم، ولا يغفل ذكرهم، ويسعى إلى تنمية قدراتهم.

وقد صاغ هذه الفكرة نفسها، منسيوس، حين جعل هذا العمل أعظم أوصاف القائد، فقال " ليس هناك وصف للقائد، أعظم من أنه يُساعد رجاله على التدريب على القوة، والفعالية، والتأثير.



إن من علامات العظمة أن يُنمّي المسؤول هذه العظمة، عند مساعدته، فإنه أول من ينتفع بهذه الفضيلة، وسبق القول إن الكريم إذا عثر، لا يأخذ بيده إلا الكرام، والقيّل، إذا وحل في الطين، لا تُخرجه إلا فيلة مثله، كما قال الفيلسوف، بيدبا.

ما عرفت البشرية، رجلاً مصلحاً، كان يقدر أصحابه، مثل النبي محمد ﷺ، كان يرفع من شأنهم، ويعرف لهم قدرهم، ويحسن الاستماع إليهم، والانتفاع بما لديهم.

لقد تقوى هذا النبي العظيم، المؤيد بالوحي، بمن حوله من أصحابه، وهذا ما يشهد له قول الله، ﴿كَرَّجَ أَخْرَجَ سَطَفَهُ، فَآزَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ سورة الفتح (الآية: ٢٩)، فكيف بمن دونه ﷺ من البشر، مما لا يؤمن عليهم الخطأ، والضعف، في مواطن متعددة؟

يظهر الإبداع في أبهى صورته، ويبرز الحماس، في أعلى درجاته، حين يشعر المحيطون بالمسؤول أنهم يعملون معه، ولا يعملون عنده، إن هذا الشعور الرافع، الدافع، يجعل منهم جميعاً فريقاً متجانساً، يحمل بعضهم بعضاً، ويقولون فيما بينهم، أنت تأخذ بيدي، وأنا آخذ بيدك، فننهض معاً، كما قال أحد القادة.

لا ضير أن نذكر أن المسؤولين بعامة كأشجار النخل قد يرى حول أعجازها نبت من البقل ينعم بمائها ودوائها، يحسن بهذا البقل وقد تفيأ ظلال النخل أن يحسن الجوار وأن يجتهد في نفع أهل الدار، وفي الإشارة غنية عن العبارة.

